

المحاضرة الخامسة

القول في الإشارة (الإيجاز والحذف)

يقال: أوجز في كلامه، إذا قصره، وكلام وجيز أى قصير، ومعناه فى اصطلاح علماء البيان: هو اندراج المعانى المتكاثرة تحت اللفظ القليل، وأصدق مثال فيه قوله تعالى: (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ) فهاتان الكلمتان قد جمعتا معانى الرسالة كلها، واشتملت على كليات النبوة، وأجزائها، وكقوله تعالى: (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) . فهذه الكلمات على قصرها وتقارب أطرافها قد احتوت على جميع مكارم الأخلاق، ومحامد الشيم، وشريف الخصال، وهذا هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم: «أوتيت جوامع الكلم» فالكلم جمع كلمة، والجوامع جمع جامعة، كضاربة وضوارب، والغرض بما قاله هو أنه عليه السلام مكن من الألفاظ المختصرة التى تدل على المعانى الغزيرة، وأنت إذا فكرت فى كلامه وجدت جل كلماته جارية هذا المجرى، ولهذا فإن الناظرين فى السنة النبوية الدالة على الأحكام الشرعية، والحكم الأدبية لا تزال المعانى المستخرجة منها غضة طرية على تكرر الأعوام وتطاول الأزمان، ومع ذلك فإنهم ما أحاطوا بغايتها ولا بلغوا نهايتها.

واعلم أن مدار الإيجاز على الحذف؛ لأن موضوعه على الاختصار، وذلك إنما يكون بحذف ما لا يخل بالمعنى، ولا ينقص من البلاغة، بل أقول: لو ظهر المحذوف لنزل قدر الكلام عن علو بلاغته، ولصار إلى شئ مشترك مسترذل، وكان مبطلا لما يظهر على الكلام من الطلاوة والحسن والرقعة، ولا بد من الدلالة على ذلك المحذوف، فإن لم يكن هناك دلالة عليه فإنه يكون لغوا من الحديث، ولا يجوز الاعتماد عليه، ولا يحكم عليه بكونه محذوفا بحال. والحذف أقسام:

- 1- الاقتطاع: وهو ذكر حرف من الكلمة وإسقاط الباقي، كقوله تعالى: (وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ) فقيل: إن الباء هنا أول كلمة «بعض»، ثم حذف الباقي.
- 2- الاكتفاء: وهو أن يقتضى المقام ذكر شيئين بينهما تلازم وارتباط، فيكتفى بأحدهما عن الآخر، ومنه قوله تعالى: (وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) ، فقد قيل: المراد: وما تحرك، وإنما أثر ذكر السكون لأنه أغلب الحاليين على المخلوق من الحيوان والجماد، ولأن الساكن أكثر عددا من المتحرك، أو لأن كل متحرك يصير إلى السكون، ولأن السكون هو الأصل والحركة طارئة.

3- الإضمار، وهو أن يضم من القول المجاور لبيان أحد جزأيه، كقوله تعالى: (وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ) أى لو

4- الاختزال، وهو حذف كلمة أو أكثر، وهى إما: حذف المبتدأ، كقوله تعالى: (بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ) ، أى هذا بلاغ. أو حذف الخبر، ومنه قوله تعالى: (أَكُلْهَا دَائِمًا وَظِلُّهَا)، أى وظلها دائم.

أو حذف الفاعل، كقوله تعالى: (كَأَلَّا إِذَا بَلَغَتِ الثَّرَاقِي) ، أى بلغت الروح. وغيرها من الكلمات والجمل المتلازمة فالإيجاز تارة يكون بحذف الجمل، ومرة يكون بحذف المفردات، وأخرى من غير حذف، فهذه ثلاثة أقسام يندرج تحتها جميع ما نريده من أسرار الإيجاز. واعلم أن حذف الجمل له فى البلاغة مدخل عظيم، وأكثر ما يرد فى كتاب الله تعالى، وما ذاك إلا من أجل رسوخ قدمه، وظهور أثره، واشتهار علمه.

فالحذف فى القرآن له إشارات بلاغية لا نجدها فى كلام البشر ذكر السامرائي أن بعض أنواع الحذف بها توسع فى المعنى قال: (الحذف يؤدي إلى إطلاق معنى المعنى وتوسعه وهو قسمان: قسم لا يؤدي إلى توسع فى المعنى ولا إلى إطلاق لأن المحذوف يتعين فيتقدير ذلك المحذوف (ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا) المحذوف أنزل وكذلك قوله تعالى (والحافظين فروجهم والحافظات) المحذوف كلمة فروجهن، وقوله تعالى (والذاكرين الله كثيرا والذاكرات) وقوله تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) هذا الحذف هنا ليس فيه توسع ولا إطلاق فى المعنى لأن المحذوف محدد ومعين.

وهناك قسم آخر من الحذف يؤدي إلى التوسع فى المعنى وهذا يحتتمل عدة تقديرات 2 أو 3 أو 4 أو 5 تقديرات قد يكون بعضها مراد وقد تكون كلها مرادة بقدر ما يحتتمل السياق. وعلى سبيل المثال قوله تعالى (وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ {44}) قال تعالى على لسان أصحاب الجنة (ما وعدنا ربنا) بالتخصيص لهم ولم يقل (ما وعدكم ربكم) مع أصحاب النار وذلك لأن الكافرين لا ينكرون فقط ما وعدهم ربهم لكنهم ينكرون ما وعدهم وما وعد غيرهم وكل ما يتعلق بالبعث والحساب والقيامة فهم ينكرون ما يتعلق بهم وبغيرهم فالسؤال لم يكن عن ما وعدهم ربهم فقط ولكن السؤال عن الوعد بصورته العامة لذا قال تعالى (ما وعد ربكم) ولو قال ما وعدكم لكان جزءاً من المعنى المراد وليس كله فأهل قریش كانوا يؤمنون بالله

لكنهم ينكرون الساعة والبعث. إذن الحذف هنا أدى إلى توسع في المعنى لأنه شمل ما وعدهم ووعد غيرهم والوعد العام بالحساب والبعث.

مثال آخر قوله تعالى (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) (ما) تحتل أمرين تحتل أن تكون مصدرية بمعنى فاصدع بأمرنا وتحتل أن تكون اسم موصول فلو قال تعالى (فاصدع بما تؤمر به) لكان اسماً موصولاً قطعاً. فما المقصود؟ تحتل أن تكون فاصدع بأمرنا وتحتل أن تكون فاصدع بالذي تؤمر به والأمران مرادان في الآية أن يصدع بأمره ويصدع بما أمره به ولو ذكر أحد الأمرين لتحدد المعنى بشيء واحد أو بقسم من المعنى، وهذا الحذف هنا يدل على التوسع في المعنى. ونظير ذلك قوله تعالى (أنسجد لما تأمرنا) تحتل معنى أنسجد لما تأمرنا به وأنسجد لكل ما تأمرنا به ولأمرك، فالحذف هنا أطلق المعنى ووسّعه. ومثال ذلك أيضاً قوله تعالى في سورة الضحى (ألم يجدك يتيماً فأوى) احتملت المعاني آواك وآوى بك خلقاً كثيراً وآوى لك ولأجلك من آوى.

مثال آخر من الحذف وقد يكون الحذف للتوسع في المعنى يعطي أكثر من احتمالين كما في قوله تعالى (ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق) هذه الآية غريبة في التوسع فيها لأن احتمالات الحذف فيه متعددة، محتمل أن يكون المحذوف حرف الباء (بأن يقولوا على الله) بمعنى ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب بهذا الأمر وهذا حذف قياسي. ومحتمل أن يكون المحذوف حرف في (ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب في أن يقولوا على الله) ومحتمل أن يكون المحذوف حرف على (ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب على أن لا يقولوا على الله) وهذا من باب التوافق والتعاهد سيكون أشد توافقنا وتعاهدنا على هذا فأصبح اشتراطاً عليه، ومحتمل أن يكون المحذوف حرف اللام (لئلا يقولوا على الله) وهنا للتعليل فيمكن أن تكون كل هذه المعاني مرادة وكلها مرادة لأنه لو أراد سبحانه معنى منها لذكر أي حرف وحدد المعنى. والتوسع في هذه الآية ليس بحذف حرف الجر فقط ولكن هناك توسع آخر هو في عدم الحذف أصلاً فيمكن أن لا يكون هناك حذف أصلاً، وهناك احتمال أن يكون هناك احتمال حذف فلو سألنا ما هو ميثاق الكتاب؟

الجواب: (أن لا يقولوا على الله إلا الحق) وهذه الجملة قد تكون عطف بيان أو بدل وهناك احتمالان آخران (أن) يحتمل أن تكون مصدرية أو تفسيرية وكذلك هناك احتمالان لـ (لا) تحتل أن تكون نافية أو ناهية إذن هناك تسعة احتمالات في هذه الآية الواحدة احتمال حذف حرف الجر

(الباء، في، على، اللام) واحتمال عدم الحذف (عطف بيان أو بدل) واحتمال أن (تفسيرية أو مصدرية) واحتمال لا ناهية أو نافية، فهذه تسعة احتمالات لمعاني في آن واحد وهذا توسع عجيب في هذه الآية الكريمة وقد تكون كل هذه المعاني مُراداة ولو أراد معنى محدداً لجاء بما يدل عليه. ومن أمثلة حذف الجمل والفقرات في القرآن الكريم قوله تعالى في قصة سليمان في سورة النمل (اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ {28} قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ {29}) ففي القصة إيجاز وحذف لكن هذا لم يمنع وضوح المعنى فنفهم من السياق أن الهدهد أخذ الكتاب وذهب به وألقاه عند بلقيس وانتظر لكن بعض هذه المشاهد حذف مع بقاء المعنى واضحاً. وهذا كثير جداً في القصص القرآني.